ثقافة وفنون كتب

ما حاجتُنا لتكميم التاريخ؟

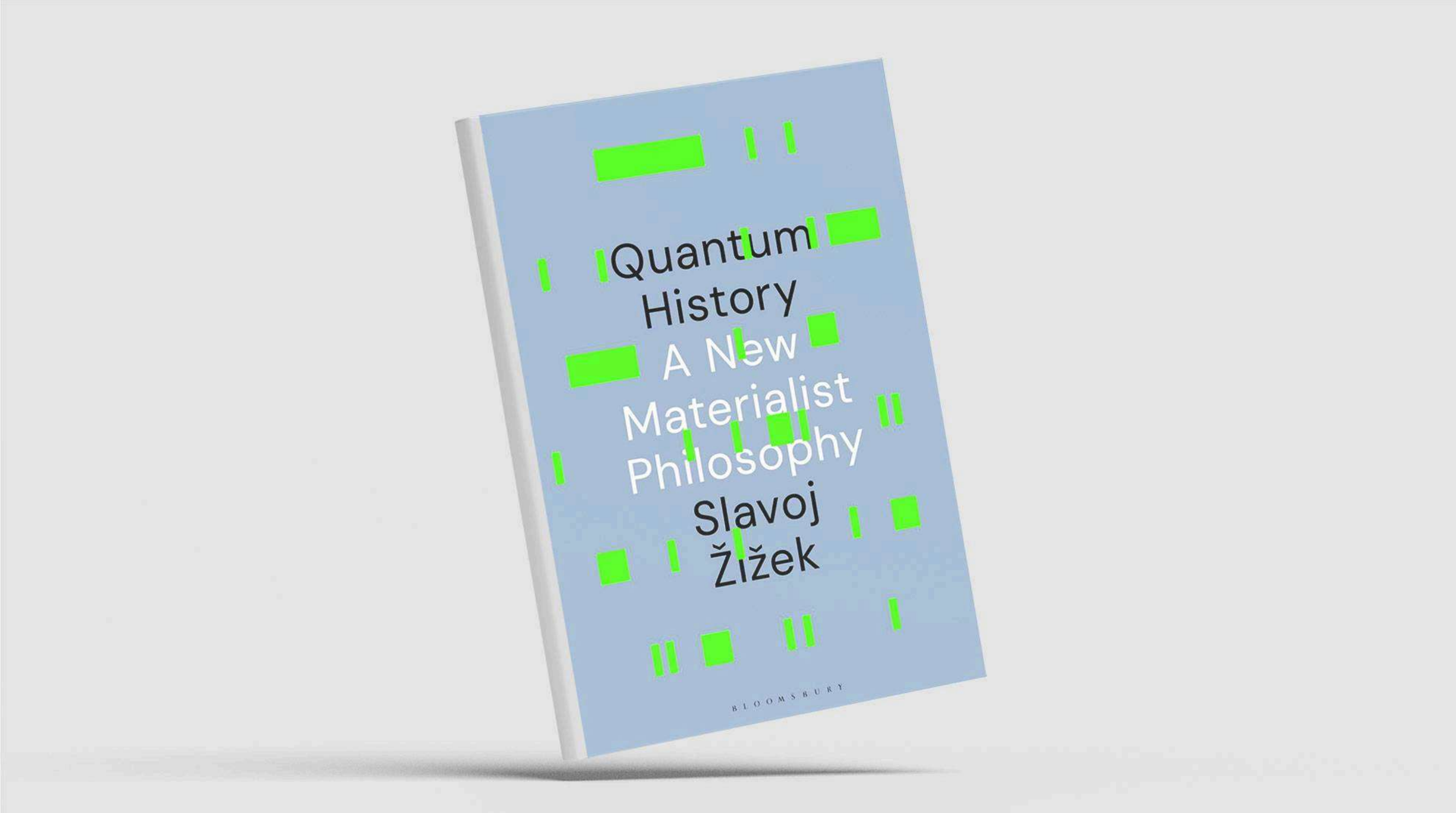
كتابُ «جيجك» الأحدث ليس سوى لعبة فنتازية لا جدوى منها



لطفية الدليمي

آخر تحديث: 19:42-29 أكتوبر 2025 م ـ 08 جمادي الأول 1447 هـ
نُشر: 19:40-29 أكتوبر 2025 م ـ 08 جمادي الأول 1447 هـ

لم أزل أعتقدُ أنّ كتاب الموضة والإيمان والفنتازيا في الفيزياء الكونية الجديدة Fashion, Faith, and Fantasy in the New Physics of the Universe هو أحد أعظم الكتب التي قرأتها في الخمس سنوات الماضية، فضلاً عن كونه أكثرها إمتاعاً. المثير في الكتاب الذي ألّفه الفيزيائي الأشهر روجر بنروز، حامل «نوبل»، أنّه يتناول موضوعات فكرية دسمة تتجاوز نطاق المشغل الفيزيائي المعروف بصرامته العلمية. الأطروحة الرئيسية في كتاب بنروز هذا هو أنّ بعضاً من الأفكار والنظريات التي صارت تحظى بشعبية واسعة وتأييد كبير داخل المجتمع الفيزيائي المعاصر، وبلغت حدّ أنها قد تُعتَمَدُ على نطاق واسع قبل أن تتوفر لها أدلة تجريبية كافية أو حتى تُثبتَ صحّتُها بشكل مؤكّد. يوجّه بنروز في كتابه نقداً قاسياً لهذا التوجّه الذي يرى فيه ابتعاداً عن المنهج العلمي الصارم والحيادية الفكرية.



في سياق معرفة مغزى المفردات الواردة في عنوان كتاب بنروز سأتناول فقط مفردة الموضة. تُعَدُّ نظرية الأوتار (String Theory) المثال الأبرز لـ«الموضة Fashion» في الفيزياء المعاصرة. يعترفُ بنروز بجمال هذه النظرية وأناقتها الرياضياتية؛ لكنه يشدّدُ على أنها أصبحت مهيمنة بشكل غير مبرر، حيث اعتبرها العديدُ من الفيزيائيين المقاربة الأكثر ترجيحاً للوصول إلى «نظرية كل شيء»، على الرغم من غياب أي دليل تجريبي مباشر يدعمها حتى الآن. يرى بنروز أن هذا الانجراف وراء (الموضة) قد يؤدي إلى تضييق مجال البحث وتهميش الأفكار والنظريات البديلة التي قد تكون أكثر دقة في وصف الواقع.

بالنسبة لبنروز، يتوجّبُ أن تكون الأناقة الرياضياتية بحد ذاتها دافعاً للبحث؛ ولكن يجب أن تُكمّلها الأدلة المادية والتحقق التجريبي. يردفُ بنروز في هذا الشأن بأنّ الافتتان الزائد بالأفكار «العصرية» يهدّدُ بتقليص الحرية الفكرية ويشجّعُ على اتباع الاتجاه السائد (الموضة السائدة. لا فرق!!) بدلاً من البحث عن الحقيقة الموضوعية. العلم في نهاية المطاف ليس لعبة ذهنية خالصة. إنّه أفكار وسياسات وأموال واقتصاد وتقنيات واستراتيجيات ومكانة دولية. ربما المثال التقني الأكثر معاصرة هو الحوسبة الكمومية Quantum Computing؛ حيث يجري تطبيق واسع النطاق لمفاهيم نظرية الكم في الحوسبة، والناتج المتوقّع هو الحاسوب الكمومي الذي يبشّرُ بثورة في العلوم والتقنيات، وكذلك البيولوجيا الكمومية التي لم تزل في أطوارها الأولى من مسار مبشّر بنتائج مثيرة. لن ترتضي حكومة مسؤولة في العالم أن تبذل أموالاً طائلة على ألاعيب فنتازية لا تنتهي بتطبيقات مشهودة ومؤثرة في صناعة المشهد العالمي.

*****

في سياق الموضة الفكرية الذي عرضته أعلاه يمكن النظر إلى أحدث كتب الفيلسوف السلوفيني سلافوي جيجك Slavoj Zižek: «تكميم التاريخ: فلسفة مادية جديدة» Quantum History: A New Materialist Philosophy، المنشور حديثاً. الكتاب محاولة (يراها جيجك مثيرة وغير مسبوقة) لربط مفاهيم الفيزياء المتقدّمة (ميكانيك الكم بالتحديد) بالفكر السياسي والتاريخي. يسعى جيجك في هذا العمل الضخم إلى تحديث المادية الجدلية الماركسية من خلال استعارة مفاهيم ميكانيك الكم، ليخلص إلى أن الواقع ذاته «غير مكتمل»، وأنّ التاريخ ملئ بالاحتمالات الجذرية التي لم تتحقق، والتي يشبّهُها بحالات التراكب الكمومي Quantum Superposition. يقدم الكتاب رؤى (يحسبها جيجك ثورية!!) حول اللايقين Indeterminacy في الواقع الإنساني والسياسي، وهو بفعله هذا يستثير نقداً مستوجباً من غير كثير تفكير وتمحيص حول الاستخدام الكيفي والاعتباطي لمفاهيم الكم المعقّدة في سياق فلسفي غير علمي.

ينطلق جيجك في كتابه من تحدٍّ فكري أطلقه لينين حول أهمية (إعادة النظر جذرياً في المادية) على ضوء كلّ اكتشاف علمي كبير، وينتخب أسساً مفاهيمية يتأسّسُ عليها ميكانيك الكم: تراكب الحالات، وهي فكرة وجود نظام في حالات متعددة في آن واحد حتى تتم ملاحظته (أو قياسه بلغة ميكانيك الكم). يستغل جيجك هذا المفهوم ليجادل بأنّ التاريخ، في لحظاته الحرجة والسياسية، لا يسير في مسار حتمي واحد بل يبقى منفتحاً على مجموعة من الاحتمالات المتناقضة التي ستتحقق واحدة منها فقط.

هناك أيضاً مبدأ اللاتبادلية Non-Commutativity، وهي خاصية في ميكانيك الكم، حيث لا يؤدي تغيير ترتيب إجراء عمليتي قياس إلى نفس النتيجة. يوظّفُ جيجك هذا المبدأ لتأكيد أنّ موقعنا كذوات فاعلة داخل التاريخ غير محايد، وأنّ اللحظة التي «نَقِيس» فيها الواقع (بمعنى أن نؤثّر فيه على المستويين السياسي أو الفكري) ليست مجرّد ملاحظة سلبية، بل هي فعلٌ تدخّلي يساهم في خلق الواقع، تماماً كما أنّ قياس خاصية جسيم كمومي يؤدي إلى انهيار دالة موجته في لحظة القياس!!.

المفهوم الأكثر إثارة في ميكانيك الكم هو انهيار دالة الموجة Collapse of the Wave Function. يمثّلُ هذا الانهيار بالنسبة لجيجك «الفعل» السياسي الجذري (الثوري لو شاء بعضنا) الذي يحوّل حالة التراكب (الاحتمالات المتعددة) إلى واقع سياسي واحد ومتعين.

يكشف جدول محتويات الكتاب عن النطاق الطموح لجيجك؛ لكن هل هو طموح منتج أو مؤثر ويسعى لنتيجة فاعلة؟ يفتتح جيجك كتابه بمقدّمة ذات عنوان ملحمي عريض: المادية والنقد الكمومي، ثم يعقبُ المقدّمة بأجزاء ثلاثة بفصول ذات عناوين تبدو ألاعيب فنتازية. هاكم بعضها: لماذا يحتاج الهيغلي إلى ميكانيك الكم؟ ولماذا يحتاج ميكانيك الكم إلى هيغل؟ (أتساءل: لماذا هذا التلازم الثنائي بين الهيغلي وميكانيك الكم؟ إنها لعبة يمكن فيها كل شيء وأي شيء). ثم تواجهنا عناوين أخرى: من هيغل إلى هايدغر والعودة، الشيء في ذاته: لاكان، اللاتبادلية: الحقيقة والرمز، ليل العالَم،

سياسة هايدغر للمحدودية، هولوغرام الكليات المتعارضة. لن ينسى جيجك تضمين الكتاب عدداً من الأقسام الملحقة تحت عنوان (المتغيرات Variations)، وهي مقالات أطول وأكثر تركيزاً على موضوعات محددة، عادةً ما يربط فيها جيجك بين الفلسفة والثقافة الشعبية. سنقرأ فيها عناوين كولاجية تجمع بين السينما والطبخ والجنس وبيتهوفن والرواقيين.

أظنّ من تجارب سابقة أنّ كثيرين سيهلّلون لمنجز جيجك الجديد، ويرونه فتحاً فكرياً مثيراً يمتاز بجدّة غير مسبوقة. أنا لستُ من هؤلاء، وأرى الكتاب مثقلاً بخليط غير متجانس من الاستعارات الكيفية والتشبيهات الكيفية. لن أخوض في أطروحة طويلة عنوانها «نقد أطروحة جيجك في تكميم التاريخ»؛ لكنّي أكتفي بالقول إنّ استخدام جيجك لمفاهيم ميكانيك الكم يتمّ بشكل استعاري Metaphorical صرف مشحون بفنتازيا ثقيلة. مفهوم «تراكب الحالات» مثلاً في ميكانيك الكم يصف نظاماً رياضياتياً وفيزيائياً على المستوى دون الذري؛ بينما يستخدمه جيجك لوصف لحظات سياسية تاريخية كبرى في العالم المادي الكبير الذي نعيشه. هذا النقل الكيفي من العالم المجهري إلى العالم العياني للتاريخ الإنساني يفتقر إلى أي آلية ربط معقولة أو قابلة للقياس. ثمّ إنّ الكثير من العلماء والفلاسفة ينتقدون استخدام المصطلحات الكمومية (مثل اللاحتمية) كمرادف لـ«اللايقين» الفلسفي أو السياسي؛ مما يخلط بين الغموض الوجودي واللاحتمية الرياضياتية التي تحكمها قوانين إحصائية صارمة. باختصار: أرى أنّ جيجك يستبدل بلغة علمية دقيقة لغة فلسفية غامضة لخدمة مشروع آيديولوجي عنوانه (المادية الجديدة New Materialism).

يعتمد جيجك مقاربة اختزالية، وهو بمحاولته هذه في ربط الفلسفة السياسية (أو حتى الوجود الإنساني) بنظرية فيزيائية فإنّه يخاطر بالوقوع في مهاوي اختزال الفكر إلى مفاهيم فيزيائية. المفاهيم التاريخية والسياسية (مثل الصراع الطبقي، والآيديولوجيا، والفعل الثوري) هي ظواهر معقدة، ناشئة عن سياقات اجتماعية وثقافية واقتصادية متداخلة.
